النهار

الاثنين ١٩ نيسان ٢٠١٠ ـ السنة ٧٧ ـ العدد ٢٤٠٢٠

"... ولم يعودوا"

بقلم سناء الجاك

قرر اهل السياسة عندنا استعادة الذكرى الخامسة والثلاثين للحرب الاهلية بمباراة ودية في كرة القدم، ورفعوا شعار "كلنا فريق واحد". جرت المباراة من دون جمهور، مع الإشارة إلى أن غالبية المباريات الكروية التي تشهدها الملاعب اللبنانية تجرى من دون جمهور منعا للاحتكاك والتقاتل، منذ ما يقارب الخمس سنوات. ربما لم ينتبه اللاعبون الـ"VIP" الى هذا التفصيل. او لعلهم يعرفون ان لبنان يضم جماهير لا يمكن جمعها في مكان واحد حول لعبة رياضية. المسؤولية لا تقع هنا على عاتقهم وحدهم، انما هذه الجماهير مسؤولة ايضاً عن تشرذمها وانسياقها خلف الغرائز لتمعن في القصاء على مستقبلها ومستقبل اولادها تحت سماء هذا البلد.
ايضاً، ربما لم ينتبه سياسيونا الى علاقة ذكرى ١٣ نيسان وشرارة الحرب التي اطلقتها عام ١٩٧٥، بحكاية نشوء لعبة كرة القدم، كما يرويها المؤرخون البريطانيون، وذلك وفق واقعة تاريخية تتلخص في ان الدنماركيين احتلوا انكلترا من ١٠١٦ الى ١٠٤٢ بعد الميلاد، فحاربهم الانكليز في معركة دامية وتمكن جنودهم من الانتصار وقطع رأس القائد الدنماركي، وتناقلوه بأقدامهم مثل الكرة. صارت الذكرى بعد ذلك تقليداً قوميا، وعلامة الثأر والانتقام، وإن تم استبدال الرأس بجسم كروي من جلد البقر كان يتقاذفه اللاعبون بين اقدامهم في الشوارع. وكانوا يسمّون لعبتهم آنذاك "ركل رأس الدانماركي"، وسميت بعد ذلك "كرة القدم".

لاعبو "كلنا فريق واحد" لم تخطر في بالهم بالتأكيد، هذه الحكاية الفظيعة، لذا سددوا وضحكوا ولم يوفروا بعضهم بعضاً من التراشق الكلامي. أعتبر الشيخ سامي الجميل بعد تسجيله هدفين ان استراتيجيا الحاج علي عمار الدفاعية "عاطلة جداً"، فرد الحاج موضحاً ان "الاستراتيجيا الدفاعية" المصونة والمنتظرة طاولة الحوار "موجهة ضد اسرائيل فقط". يعني بالخط العريض: لا تناقشوا "سلاح حزب الله" او ربما اي سلاح آخر. يكفيكم اننا لعبنا معكم، لأنكم سترفوننا عندما لا نلعب. وحتى لا يحمل "الغلب" قال: "ولم نرغب في أن تخرج حكومة الحريري خاسرة".
دمهم خفيف ممثلو الشعب عندنا، فهم منتصرون كفريق واحد كيفما حار ودار بنا زماننا. هذا الفريق مستمر منذ ١٣ نيسان ١٩٧٥ مع تغيير طفيف في الوجوه بحسب متطلبات المرحلة. الطارئ عليهم اذا كان لا يجيد اللعبة الاصلية، لن يستمر طويلاً. قد بتركونه يربح قليلاً ويضحك قليلاً، لكن للصبر حدوداً. الا ان هذا الامر لا يمنع ان احتفالهم بالذكرى مبتكر، ولا بد أن تكون الوكالات العالمية قد نقلت صورهم وأظهرت روحهم الرياضية التي تمنحهم مرونة ليتسلوا ويسلونا عندما يشاؤون، ويهيّجوا الشوارع والبشر ويرفعوا المتاريس، ايضاً عندما يشاؤون.
لكن حكاية "رأس الملك الدانماركي" لا بد ان تخطر في بال الذين يتابعون خيمة اهالي المفقودين المنصوبة منذ خمس سنوات قبالة مبنى الامم المتحدة. واذا اردتم مزيداً من الدقة، فدعوا اللاعبين يسددون اهدافهم من دون جمهور يصفق، وانزلوا الى وسط البلد. الافضل ان تنصتوا قليلاً لتسمعوا صوت اسعد الشفتري، أحد رموز هذه الذكرى، وأول "التائبين" عن الحرب. اسمعوه وهو يقدم الاعتذار الى عدد من أهالي المفقودين. يقول لهم: "إني مسؤول عن بعض الضحايا المفقودين. إنما ما عدت أعرفهم ولا أذكر أسماءهم بعد هذه السنين الطويلة. قد أعرف القليل عن مكان وجود البعض". ويضيف: "حاولت المساعدة في ثلاث حالات فردية لمفقودين. وتوقفت عن البحث لأسباب عدة، منها النسيان بسبب مرور الزمن، وتوقف الذاكرة بسبب هول الفعل، والخوف من التشهير الفردي أو الجماعي ومن الملاحقة القضائية، كذلك من الانتقام". ويشير الى ان "هناك ١٧ ألف مفقود، وإذا كان الرقم الرسمي صحيحا، فهؤلاء لم يرموا أنفسهم طوعا في الوديان والآبار والبحر والمقابر الجماعية. تعالوا يا رفاقي إلى أي جهة انتميتم، أحزابا وتنظيمات ومناطق، نصحح ولو القليل القليل مما أتت عليه الحرب أو ما فعلناه. القتل خلال الحرب أو السلم خطيئة، أما السكوت عن المقابر الجماعية فهو شر أعظم. علينا واجب مساعدة الأهل في معرفة مصير الأحباء".
كذلك يمكنكم ان تسمعوا رئيسة لجنة أهالي المفقودين والمخطوفين وداد حلواني تطالب "جميع المسؤولين الذين شاركوا في الحرب الأهلية بالاجتماع والعمل لكشف مصير المفقودين، لأن لأهاليهم الحق في معرفة مكان دفن اولادهم". ونقول: "عليهم أن يفتحوا ملف الحرب ويطلعوا الرأي العام على المعلومات التي يملكونها. فنحن لا نحمّل طرفا واحدا مسؤولية القتل والإخفاء القسري". حلواني ترفض ان ترى الحرب الأهلية في لبنان ذكرى، ذلك لأنها واقع مستمر لم ينته ما دامت هناك شريحة لا يستهان بها من اللبنانيين لا

تعرف مصير مفقوديها. وهي تستغرب كيف يمكن البلد أن يعيش الحرب والسلم في آن واحد. كما انها تعرف ان اللبنانيين لا يزالون حاضرين ليتحاربوا. وتعرف ان هذه الجهوزية تمظهرت في السابع من ايار ٢٠٠٨، عندما عادت الحواجز الميليشيوية إلى الشوارع وأوقفت الناس لتسألهم عن هوياتهم. هي تعرف ونحن نعرف انه في مواجهة شعار "تنذكر حتى ما تنعاد" الذي ترفعه لجنة اهالي المفقودين، "هناك من يريد لنا ان ننسى ونعيد الحرب. وما يحصل في لبنان لا يشبه ما حصل في أي بلد شهد حرباً. لا أحد يشارك في حرب تخلف كل هذه الجرائم، ومن ثم يتسلم موقعاً رسمياً ويمسك بالسلطة ويقود مسيرة السلم. كيف تركب هذه المعادلة؟ وكيف يدين بعض من شاركوا في الحرب بعضهم الآخر بمثل ما ارتكبت ايديهم؟".

ليس صحيحاً "كلنا فريق واحد". وليس صحيحاً اننا كلنا ضحايا فريق او فرقاء. نحن مشاركون في لعبة "رأس الملك الدانماركي"، فقط لأننا صامتون ونحاول الاستمرار في حياتنا.

الصحيح يكمن في الوجوه التي حملتها "أمم" الى مبنى "سيتي سنتر" وعرضتها بين الجدران التي تختزل الحرب. عدد هذه الوجوه ستمئة من اصل ١٧ الف مفقود، ناهيك بالذين سقطوا منذ ذلك التاريخ حتى تاريخه. عنوان الوجوه: "... ولم يعودوا" ¶

جميع الحقوق محفوظة – © جريدة النهار ٢٠١٠